من هُنا وهُناك

عودة فرنسا

عاش الكاتب الانجليزى « تشارلز مورجان » زمناً فى فرنسا فأحبها حب من عاشر أهلها عن كثب ، ودرس ثقافتها عن تعمق وفهم . ولقد كتب عنها كثيراً ودافع فى عدة مقالات عن رسالتها التى أدتها وما زالت تؤديها للمدنية الانسانية . ومن أحدث ما كتب قصة شائقة سماها « الرحلة » أصدرها سنة ١٩٤٠ وقد أهداها إلى « رجل وامرأة من فرنسا » لم يسمهما ، وكل ما وصفهما به أنهما عاونا على تمكين حب فرنسا من نفسه . وهو يأسف إذ قطعت المحنة التى تجتازها فرنسا ما بينهما من صلات وحالت دون وصول هذا الكتاب إليهما . ولكن فرنسا كما يقول «فكرة لا يمكن للمدنية الانسانية أن تفرط فيها» . وفى عام ١٩٤٤ أصدر كتاباً سماه صوراً تعكسها المرآة . فيه عدة مقالات متفرقة فى موضوعات مختلفة ، منها مقال عن عودة فرنسا كتبه فى ٢٨ نوفمبر سنه ١٩٤٢ صور فيه حقيقة هذا البلد فى وقت نظر الناس إليه نظرة إقلال من شأنه بسبب أحداثه السياسية . ولطرافة هذا المقال وما فى آرائه من إخلاص ووفاء رأينا أن ننقله إلى قراء « الكاتب المصرى » .

ترى لو اجتمع إنجليزى وأمريكى وفرنسى فى مقهى من تلك المقاهى التى تواجه كنيسة « نوتردام » فى باريس وقد انقضت أعوام وأعوام على هذه الحرب ، فنظروا إلى الكنيسة تخترق صفو سماء ليلة من ليالى يونيو ، فقال أحدهم : « لقد حانت للمدنية الانسانية فرص إذ ذاك . . . » ثم أنصتنا نحن من خلال الأعوام التى طوتنا وطوت زماننا فماذا نسمع إنهاءاً لتلك الجملة ؟ أيقول : فانتهزتها أم يقولون : ولقد أفلتت منها ؟ وماذا يا ترى يكون شعور كل منهم نحو الآخر ؟ ماذا يحس الفرنسى ساعتئذ نحو رفيقيه ؟ وما يشعر الأمريكى والانجليزى نحو فرنسا ؟ أيكون شعور سائح أتى ليتطلع إلى آثار فرنسا دهشاً عجباً لا يفقه شيئاً ولا يستسيغ معنى ، أم شعور سائح أتى بلداً أحبه لأنه عرف مدينته معرفة حقة وأشرب قلبه حباً وإجلالا لهذا الذى قد عرف ؟

لا شك أن بين الامريكى والانجليزى والفرنسى اختلافات فى المزاج والطبع من العبث أن تنكرها . بل إن الفرنسى أقل الناس انخداعاً بما يبديه الأمريكيون والانجليز من ضروب الذوق واللياقة يخفون بذلك ما يتعصبون من أجله ضد فرنسا وما ينقمونه عليها . ففى عام ١٩٤٠ سلمت فرنسا ، وكان شعبها كالأمريكيين والألمان يعتقد أن إنجلترا لا بد مسلمة هى أيضاً . وصرح أولو الأمر فى قيشى ولم يكن ذلك أثراً لارهاق أو ضغط عليهم ، أنهم يرجون بنصرة ألمانيا . بل لقد صرح بعض الكتاب الفرنسيين اللاجئين إلى أمريكا ، فى ظل ما أسبل عليهم من حرية ورعاية ، بانتصارهم لقضية ألمانيا . وما يمكن أن يغتفر للتجار والساسة لا يمكن أن يغتفر لكاتب ؛ فالكاتب رسول رسالة سماوية عليه أداؤها . إنه كرجل الدين ليس من حقه أن يقصر فى أداء رسالته . فللناس جميعاً أن يساوموا فى أمور دنياهم ، ولكن ليس لحامل رسالة الفن أن يفعل شيئاً من ذلك . لقد ارتعشت فى تلك المحنة يد الكثيرين من رسل

الفن فى فرنسا دون ريب . ولكن أيكون هذا سببا فى أن ننتقص من قدر فرنسا ؟ اننا لو بدأنا نعدد مساوئ فرنساً لنقارنها بمساوئنا أو لنزنها بمحاسنها لنرى أى الكفتين ترجح لفتحنا باب نقاش ممل سخيف لا نهاية له ، ولبعدنا عن جوهر المشكلة الحق التى تواجه فرنسا بها العالم اليوم .

فليست الأمة فيما تسديه للمدنية بمجموع أفرادها ، فما هم إلا جيل من أجيال أبنائها فى الماضى والحاضر والمستقبل . وهى ليست فى ذلك بحكومتها ، فالحكومة هيأة وقتية مفتعلة متكلفة . وإنما هى بفكرتها التى تمثلها . وكما أن للانسان حقيقة ليست فى ملامح وجهه أو صفاته أو فيما يأتى به من أفعال مختلفة إن خيراً وإن شراً ، وهذه الحقيقة هى شخصيته التى تملى عليه كل هذا وتلونه ، فكذلك للأمم شخصيتها أو فكرتها التى تميزها من سائر الأمم والتى بفضلها تقدم للمدنية نصيبها من الرقى والتقدم . ولفرنسا فكرة يجب أن نتبينها وسط هذا الغمام من حوادث الحرب ؛ فاذا نحن أخفقنا فى أن نتبينها لم نجرم فى حق فرنسا وحدها ، وإنما نجرم فى حق أنفسنا وحق المدنية الانسانية كلها .

إن فى الرجل السياسى ميزة لا أجد لها اسما أقرب من أن أقول عنها إنها لباب الحنكة السياسية . هذه الميزة هى التى تجعل السياسى لا ينظر إلى الانسانية اليوم أو غداً وإنما هو ينظر إلى لبابها ويقدر تبعته نحوها لا بالأجيال ولكن بالقرون . إن مهمة هذا المحنك السياسى هى أن ينظر إلى نهر المدنية فيصون مجراه وينقى عنه كل ما قد يجرفه التيار إليه من سموم وأوحال ، يرفع السدود حتى لا يقف جريان النهر ، ويحول مجرى النبر إذا رأى من التربة ما يجب أن يرويه ، ويجاهد فى سبيل أن يظل النهر وحدة كاملة لا يعتوره انقسام ولا يصيبه ضعف أو هزال . إنه لا يرى الماضى والحاضر والمستقبل تعاقب أزمان وتتابعها ، وانما هو ينظر إليها جميعا نظرة الرسام الفنان فيراها كلا فى إطار واحد يراها أجزاءاً من صورة واحدة . لقد يرى الممثل السياسى لأمة بصفته رجلا سياسياً ، الأمم فى مصافها وما يكون بينها من تضارب القوى إن حربا وإن سلما ، ولكنه بوصفه رجلا سياسيا محنكا مجربا يجب أن يشغل نفسه بفكرة هذه الأمم أو بشخصيتها أولا وقبل كل شىء . وإن النظرتين لتختلفان اختلاف نظرتى رجل الدين والشرطى إلى أخطاء الناس وخطاياهم ، أو اختلاف نظرتى الصحفى والمؤرخ إلى حوادث الحياة ، بل اختلاف نظرتى المسجل والشاعر نحو سير الحياة وأحداثها . فبالنظرة الأولى يحاول أن يرى مظاهر الأمم وتصرفاتها ، وبالنظرة الثانية يحاول أن ينفذ إلى لب حقيقتها . فى الحال الأولى يسأل عن فرنسا ماذا عملت وماذا تعمل وماذا ستعمل . وفى الحال الثانية يسأل ما هى فرنسا ؟ ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وما هى ألمانيا ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وبذلك يرتفع عن ناظريه ضغط الحوادث وتخفت فى أذنيه أصوات الأحزاب ، فيرى بعقله وحسه ، فاذا حكم أصدق وأصرح ، وإذا حبه أخلص وأثبت . فان يكن قد أحب فرنسا حقاً فانه ليراها الآن فى محنتها فيحبها كما أحبها من قبل . يرى فرنسا من خلل الأحداث فاذا فرنسا هى هى لم يتغير فيها شىء .

ما أكثر ما ينتاب الأمم من تغير الأحوال بل من تغير الآراء ، ولكن شخصية الأمة تظل هى هى كما تظل شخصية المرء لا تتغير ؛ فاذا قوته تبدو من خلل ضعفه ، وطفولته تظهر من خلل رجولته ، بل إذا الأمل يلوح من خلل يأسه . إن فكرة الأمة قد تتغير ولكن شخصيتها ثابتة . والذى أخافه أن نقع نحن الانجليز فى هذا الخطأ فنظن أن فرنسا قد انحلت

فكرتها وتسممت شخصيتها لأن أبناءها قد سلموا فى يوم من الأيام . أو نظن أن فكرة المانيا فكرة سليمة جديرة بأن تغذى نهر المدنية الانسانية ، قبل أن تطهرها الأيام والسنون مما قد علق بها من أو حال أثراً للنظام الجديد ، لا لشىء إلا لأن المانيا انتصرت فى يوم من الأيام . إننا إن فعلنا ذلك فما أحرانا أن نصم آذاننا حتى لا نسمع آخر الجملة التى فاه بها أحد هؤلاء المجتمعين فى مقهى من مقاهى باريس قرب « نوتردام » : « لقد حانت للمدنية الانسانية فرصة . . . » ترى هل انتهزتها أم أنها جعلتها تمر بها فأفلتت منها .

والآن ما هى فكرة فرنسا ؟ إن أهم ما يبرز من وراء تفكير أبنائها وتصرفاتهم هى فكرة التماسك والوحدة والكل . إن الفرنسى يفكر فى الفرد ثم فى الأمة . وإنه ليتردد بطبيعته فى أن يكون عضواً فى جماعة أو نقابة أو حزب . إن نظام الأحزاب فى فرنسا بعيد كل البعد عن الثبات والاستقرار اللذين يتمتع بهما فى أمريكا وإنجلترا . والحكومات فى فرنسا متزعزعة غير ثابتة . إن الفرنسى وحده دون سائر أبناء أوربا أو أمريكا هو الذى يستطيع أن يأبى على رئيس مجلس النواب حقه فى أن يطلب الاقتراع على مسألة من المسائل أو أمر من الأمور . حتى الثورة الفرنسية أبت على الفرنسى أن يفنى شخصيته فى المجموع ؛ ففى إبان الحماسة ارتفع صوت الناقدين عاليا . والنقد الذى يسارع باخفاء رأسه فى التراب أمام أى تهديد بالقوة فى ألمانيا ، يرفع رأسه عالياً فى فرنسا ليتحدى أى سلطان . ففرنسا تريد ناقداً لكل متحمس ممسكا العنان لكل جامح — تاليران لكل نابليون ، وفولتير لكل بورة . وهذا ما يصدم المتحمسين من الانجليز الذين يسارعون فى الاندفاع المتحمس لكل بارقة أمل تلوح فى الوصول إلى الأرض الموعودة . ولهذا الخلق عيوبه بلا شك ، ولكن فلنعترف أولا وقبل كل شىء بمزيته فى ميدان السياسة . إنه ليس مجرد التسليم بالأمر الواقع وليس الغفلة عما يحدث ، بل ليس اليأس من كل إصلاح ؛ إن هو إلا حس عميق أملته التجارب بفشل الجماعات . إنه الشعور القوى بأن الحماسة المشتركة تنقص من قوة الشخصية . لذلك كثيراً ما نرى الفرنسيين يحللون الحماسة وينتقدونها فى سبيل المحافظة على قوة الشخصية وتماسكها .

ويقول الإنجليز منتقدين : إن الفرنسيين منطقيون أكثر مما يجب . إنهم قوم لا إيمان لهم ، إنهم لا يستطيعون أن يحلقوا فى الآفاق ولا أن يروا ما وراء الأفق البعيد . وفى اختصار : قوم قساة جامدو العواطف . فهل من الحق أن الفرنسيين قساة جامدون ؟ نعم إنهم لكذلك ، بل إنهم لكذلك فى النقد خاصة . إنهم لا يغتفرون مثلا لممثل تقصيره فى تمثيل دوره لأنه كان فى يوم ما معبود الجماهير . ولكنهم — ويجب أن نعترف بذلك — لا يمكن أن يهاجموا ممثلة لأن سنها كبرت أو لأن الدور الذى تلعبه لا يلائم سنها . إنهم لن يرحموها مسنة أو شابة جميلة أو قبيحة إذا ما قصرت فى أداء دورها ، فمتى أعادته فليس لهم عليها أى اعتراض . وأما نحن فاننا على العكس من ذلك ، فمن تقاليدنا أن نترفق بشخصيات المسرح الذين جنى عليهم الدهر فذهب بجمالهم . فى مثل هذا نرى أن الفرنسيين أجمد منا عاطفة وأقسى . ولكن أليسوا فى هذا أصدق منا وأخلص للحق ؟ إنهم لا يعرفون الاحسان فى العواطف لا فى المسرح ولا فى الأدب ولا فى السياسة . فاذا العمل استحق النقد وجهوه لا للشخص الذى يقوم بالدور ولكن للدور نفسه . بذلك لا يمكن للمغنى الذى شاخ وكبر أن يجد لنفسه عيشاً فى باريس ، ولذلك انمحى التعصب لنابليون بعد سيدان . ولذلك أيضاً نجد

أن الشيء المؤكد الوحيد فى خضم الشكوك التى تحيط بفرنسا هو أن الجمهورية الثالثة قد ماتت إلى غير بعث .

ولعل الاتهام الخطير حقاً هو قولنا إن فرنسا ضيقة الأفق بسبب حرصها الشديد على الوصول إلى لب الحقيقة . فانه ليقال مثلا إن تصميمها على أن تكون المعاهدات بين الأمم رسمية ، وريبتها من كل ما يقع بين الأمم من اتفاقات غير رسمية أو معلقة قلقة ، كل هذا قد أدى بفرنسا فى ربع القرن الأخير ألا تقدر تفاهات السياسة وصفائرها حق قدرها . والتهمة نفسها توجه إلى لغة الفرنسيين وأدبهم . فانه ليقال عن حق إن اللغة الفرنسية وإن تكن قادرة على أن تحقق كثيراً من المجال الفنى والامتياز فى الرشاقة والخفة والوضوح والدقة ، فان كلماتها عاجزة حتى فى يد أمهر الكتاب عن أن تؤدى معنى غير ما قد حدده لها القاموس . وبعبارة أخرى إن الكلمة الفرنسية عاجزة عن أن تقبل فى معناها ظلالا أو ألوانا جديدة . كذلك يقال ، ولعله عن حق أيضاً ، إن هذا العيب نفسه فى أدب الفرنسيين . فلقد أدى أدباء فرنسا إلى العالم ثروة لا تقدر ، ولكنها تمتاز بافتقار عجيب فى التصوف . حتى عند « مالارميه » Mallarmé حيث نجد العبقرية الفرنسية تكشف عن أخص مزاياها ولا نجد التصوف بمعنى الكلمة . هذه العبقرية التى ترى الخضار فى الخضرة والفرد فى الجماعة والوحدة التى تستطيع أن تؤلف وتجمع الكل المتنافر فى واحد منسق ، هذه العبقرية التى ترى التجربة الحسية كلا تاماً متآلفاً . نعم حتى عند « مالارميه » لا نجد هذا التصوف وإن أشبه « بليك » Blake وإنهما ليسيران فى سبيلين متقابلين ولكنهما لا يلتقيان . ومن يدرى ! لعلهما يلتقيان هناك فى اللانهائى حيث لا ندرى .

مهما تكن ظاهرة الحياة الفرنسية التى نحللها فإن الخاصة التى تسيطر على كل هذه الظواهر ولا يمكن أن تخلو منها ظاهرة مهما تكن ، هى الفرار من التفكك والتحلل . هى أن ترى الأشياء على حقيقتها وأن يقارب بين بعضها وبعض حتى تؤلف كلا تاما منطقيا من متفارقات تبدو متباعدة متنافرة . وفى اختصار ، هو التوحيد والتأليف ، هو الاتمام والاكمال . إن حب فرنسا لهذا التأليف بين الأجزاء المتنافرة ، هو لباب ما قدمت للمدنية الغربية . ولهذه الخاصة وحدها قصدها الشباب من جميع أنحاء الأرض ليتعلموا بها ، لا ليتلقنوا ما تلقيه حاممائها عليهم من دروس ولكن ليشعروا بأنهم يجدون فى فرنسا المرآة التى يرون فيها أنفسهم على نحو لم يكونوا يعرفونه من قبل أو يدركونه .

إن لفرنسا عيوبها بلا جدال . ولقد برزت هذه العيوب فى هذا العصر الحديث بروزاً قوياً ، فلا يمكن أحداً أن يجادل فى أن فرنسا كانت خائفة وجلة ، وأن هذا الخوف قد جعلها تصرف قوتها فى إعداد وسائل الدفاع إعداداً جعلته شدة الخوف مضطرباً .

وكانت فكرة فرنسا فكرة التأليف والتوحيد مهددة وفى خطر . وكان الأعداء المهددون متعصبين ، وكانت فرنسا تعبة نهكتها حرب السبعين وأثخنت جراحها حرب الألمان الثانية . وإن فرنسا لتمر بفترة من فترات خلودها ، فترة تحس فيها بالكبر وإذا العدو يهجم مرة أخرى . لقد هجم وهزم ، وكان أسلوب العدو معها منتصراً كأسلوبه فى الاعداد للهجوم : أسلوب تبرز فيه فكرة المجموع يعمل على حساب الأفراد ويعمل لتفكك الشخصية الانسانية تفككا وانحلالها انحلالا تاماً . ووسيلته أن يعرض على هؤلاء المتعصبين السريعى التأثر فرصة العمل فى وحدة زائفة مصطنعة طاغية .

إن الفناء فى المجموع فى حياة الأمم كالجنون أو كانحراف العقل يصيب الأفراد . إنه ليحطم كل قيمة إلا قيمة القوة ، ويمحو كل فضيلة إلا فضيلة الطاعة . إنه تسميم لكل تفكير أو تعقل ، وخنق لكل إيمان يمكن أن ينقذ التعصب المتفانى . وإن ما ينتج عن هذا من إلغاء لميزان العقل وقدرته بوساطة هذا الميزان على التمييز بين الطيب والخبيث لجريمة لا يمكن أن يقاس بها شىء من فظاعات النازية . إنها جريمة إفناء الروح الانسانى . وما زال هناك من الطيبين والطيبات من يظنون أننا إنما نحارب مطامع جماعة جشعة ، أو أن فرنسا تمتحن محنتها فى سبيل مطامع عصابة يجب أن تفنى ، فيغفلون بطيبة قلوبهم عن أننا إنما نحارب وحشاً ونقاتل غولا قد طغى على روح أمة فأفسدها ، فأرادت بدورها أن تفسد العالم حولها . ولكن الحق يكتب اليوم فى فرنسا ، ألا فليقرأه كل من أراد أن يقرأ . ففى بولندا التى لم تكن مركز فكرة التوحيد والتأليف فى يوم من الأيام والتى لم تنظر إليها ألمانيا إلا على أنها عائق طبيعى فى سبيل التوسع شرقاً ، كان الأسلوب المتبع فى التغلب عليها هو الإفناء والقتل ، وكان ذلك كافياً . ولكن فى فرنسا ، فرنسا الأمينة على المدنية الأوربية كلها ، كانت السياسة المتبعة شيئاً آخر غير الافناء والقتل : كانت التفرقة والاذلال والافساد والاستعانة بالبعض على البعض الآخر . فاذا استطعنا بالقوة المادية أن نخرج الألمان من أرض فرنسا ، فان تلك السياسة ستظل على نحو ما قائمة فيها . إن ألمانيا لا تحارب من أجل النصر المادى وحده ، ولكنها تريد أن ينتصر التفكك الروحى والانحلال المعنوى .

وإن المسيحية لتأبى هذا التفكك ، وإن العدل الرحيم الذى يرفع لواءه القانون وهو لباب الديمقراطية الانجليزية ليأبى ذلك هو أيضاً ، وإن فكرة التأليف والتوحيد التى تنطوى عليها فرنسا لألد أعدائه . لذلك كانت فرنسا ضرورة لنا لا يمكن أن نفرط فيها . ولذلك كانت فرنسا إذا حطمت ضرورة لألمانيا لا تفرط فيها . إن معاملتنا لفرنسا لامتحان لفراستنا وحكمتنا . فكل أمة أمريكا كانت أو انجلترا او ألمانيا ترى إذا ما تطلعت فى وجه فرنسا خطوطاً لو استطاعت أن تقرأها لعرفت ما قد كتب لها أو عليها .

سهير القلماوى

رأى فى حدوث اللغة ونشأة الحروف

هل فكرت يوماً ما فيما للغة المنطوقة من جلال الشأن ؟ إن التمدن يصبح شيئاً تافهاً حقيرا ، لو لم تكن الكتابة التى تمكننا من نقل آراء واكتشافات الماضى السحيق إلى الأجيال المقبلة .

أما إذا عدمنا اللغة المنطوقة فقد عدمنا كل شىء ، وأصبحت الحياة وجوداً مجرداً لاخير فيه ولا غناء .

فاللغة المنطوقة هى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقل أفكارنا إلى الآخرين ، وان نستفسر عما نريد ، وأن نصف ما يخالجنا من إحساس وشعور .

وفيما يلى سنقص قصة اللغة المنطوقة ، وقصة اللغة المكتوبة ، وما نالها من تطور منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

إن اقدم اللغات المكتوبة ليس لها أبجدية من أى نوع . ولكنها تعبر عن نفسها بمجموعة من الصور التى تمثل الأشياء والأفكار .

وقبل أن تكون أية لغة مكتوبة كانت هناك لغة منطوقة . أما أصل هذه اللغة المنطوقة فعلمه عند علماء اللغات ، وعلمهم فى هذا قليل لا ينقع غلة ولا يشفى غليلا . ولهم فى هذا العلم القليل نظريات مختلفة .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن اللغة ليست شيئا يولد معنا ، بل هى شىء يجب أن نتعلمه كما نتعلم كيف نكتب . وبرهان ذلك قائم فى حالة الأطفال الذين يولدون صما . ذلك أن الذين يسمعون يستطيعون أن يقلدوا فى سهولة ويسر ما يسمعونه ممن هم أكبر منهم سناً . ولكن الأطفال الصم ليسوا بقادرين — بحكم فقدانهم حاسة السمع — على ان يتعلموا الكلام بغير عناية خاصة وتدريب طويل .

لغة العيون

كنا فى الماضى نسمع الشىء الكثير عن الصم والبكم . أما الآن فاننا نعلم أن الموصوفين بهذه الصفة ليسوا بكما إنما هم صم ليس غير . ولذلك فاننا نسميهم الصم — البكم .

وهم فى أغلب الحالات أوتارهم الصوتية لا عيب فيها ولا نقص . فاذا تعلمت عيونهم أن تراقب حركات فم من يكلمهم أمكنهم أن يتعلموا الكلام ؛ وإن كان معروفاً أن تعلم الكلام بطريق الأذن هو أسهل وأيسر من تعلمه بواسطة العين .

ولكن الأطفال الصغار وكذلك الصم البكم يستطيعون أن يعبروا عن رغباتهم بغير الكلمات . وطريقة التعبير التى اختصوا بها هى طريقة الاشارة والايماء ؛ فهم يشيرون إلى الأشياء التى يشتهونها ، وهم يصدون عن الأشياء التى لا رغبة لهم فيها . وهم يبتسمون لمن يحبون ، وهم يعبسون فى وجه من لا يحبون .

والرأى عند بعض العلماء أن لغة الايماء والاشارة قد سبقت لغة الكلام .

ولغة الايماء والاشارة مازالت سائدة حتى يومنا هذا بالرغم من تقدم لغة الكلام ووصولها إلى ما يقرب من درجة الكمال .

وهذا مشاهد وواضح كل الوضوح عند الوعاظ والساسة . بل هذا واضح حتى فى الأحاديث العادية التى نستعمل فيها الاشارة لتوكيد كلماتنا وتوضيحها

ومن الثابت أننا لا نعرف معرفة يقينية هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن يستطيع الكلام إطلاقاً . ولكن الثابت ثبوتاً لا شك فيه أن الانسان فى عصوره الأولى كان يستعمل قليلا من الكلمات .

وإننا لنجد فى عصرنا هذا أن لغة الشعوب التى هى أقرب إلى الهمجية لا تتعدى مجموعة ضئيلة جداً من الكلمات بحيث لا تجوز المقارنة بينها وبين لغة كالانجليزية مثلا ؛ فان قاموس اكسفورد الكبير يحتوى ٤٠٤٨٢٥ كلمة مختلفة وضع أمام كل منها تعريفها . ويبلغ مجموع الكلمات مضافاً إليها شرحها خمسين مليون كلمة .

وقد قيل إن مجموع كلمات اللغة الانجليزية ٧٠٠٠٠٠ كلمة . . ولا يستطيع أحد — بالطبع — أن يستعمل كل هذه الكلمات . ولا نستثنى كبار الكتاب والأدباء .

وقد استعمل شكسبير مايقرب من ١٥٠٠٠ كلمة . ولكن الفلاح أو العامل الأجير لايعرف من اللغة غير ٨٠٠ كلمة ، ويستعمل أكثرنا بضع آلاف من الكلمات .

لغة الايماء

يقول العلامة سايس (١) : إن لغة الايماء هى أول طريق اكتشف للتفاهم بين الناس . والهنود الحمر قد برعوا فى هذا النوع من اللغة ، وكذلك سكان جنوب إيطاليا هم جد مغرمين بلغة الايماء وبخاصة أهل نابلى وأهل صقلية . وكذلك التجار يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم دون أن ينطقوا بكلمة من الكلمات .

ومن الاشارات البسيطة التى يعرفها كثير منا : إغماض العين وحنى الرأس مستندة على اليد دلالة على النوم . ومنها الرجفة دلالة على الخوف . ومنها إخراج اللسان دلالة على التحقير .

ولكن لغة الايماء تستطيع أن تأتى بالعجائب . وقد قص المستر جلوديت (٢) — وهو من أشهر من تولى تعليم الصم — قصة عجيبة تبين لنا قدرة تلك اللغة على حسن الأداء . قال :

زارنى فى مدرستى أحد نوابغ الفنانين ، فأثنيت أثناء حديثى على ذكاء أحد تلاميذى من الصم وقدرته على قراءة أسرة وجه مخاطبه ، وتفسير خطوط جبهته . فطلب منى الفنان إقامة الدليل ، فطلبت إليه أن يختار أية حادثة من حوادث تاريخ اليونان أو الرومان أو الانجليز أو الأمريكان من تلك الحوادث التى يمكن شرحها بالتمثيل النظرى والتى يمكن رسمها على لوحة التصوير .

فقال الفنان : قل له إن بروتس قد حكم على ولديه بالاعدام لوقوفهما فى وجهه ولأنهما عصيا أوامره . وكان التلميذ على علم بأهم حوادث التاريخ الرومانى ، ولكنه لم يكن يعرف أية حادثة سنتخذها موضوعا لحديثنا معه .

فبدأت الامتحان بالاشارة المعروفة عند معلمى الصم كرمز على الرجل الرومانى وهى الأنف الأقنى . ثم رفعت عينى إلى أعلى ثم إلى أسفل وحركت رأسى إلى وراء مرات متعددة ، لأدل على أن الحادث من الحوادث القديمة .

ثم رسمت بوساطة ملامح وجهى صورة توحى إلى ذهن التلميذ أن صاحبها الذى أعنيه كان وحلا بأمر فبطاع ، وأن مخالفة أوامره قد تؤدى بمخالفه إلى المشنقة . ثم تتابعت الصور التى رسمتها بملامح وجهى ممثلا حنان الوالد ورجوعه فى الحكم الذى أصدره باعدام ولديه ثم تغلب حب السلطة الذى جعل قلب الوالد يقسو قسوة القانون فينفذ حكم الاعدام فى الولدين . فلما انتهيت من تمثيلى بادر التلميذ إلى لوحه فكتب عليه القصة كاملة لم يخرم منها حرفا . . .

لغة الاصابع

وهناك لغة الأصابع . وقوامها إشارات بالاصابع أجازها العرف لتقوم مقام الأبجدية المعروفة .

---

(١) العلامة أرشيبلد سايس ١٨٤٥ — ١٩٣٣ أحد العالمين باللغات من الانجليز . من مؤلفاته كتاب النحو الأشورى المقارن . وكتاب الديانتين المصرية والبابلية .

(٢) توماس هوبكنس جلوديت ١٧٨٧ — ١٨٥١ معلم أمريكى شهير بقدرته على تعليم الصم والبكم .

كيف تطورت لغة الكلام .

للعلماء فى ذلك نظريات عدة ، منها : نظرية الاستخفاف والسخرية . وقوام هذه النظرية أن اللغة بدأت بمجموعة من أصوات التعجب المنبعثة من شعور الألم أو شعور السرور أو شعور الدهش .

ونحن نجد فى اللغة الانجليزية الكلمات الآتية : Ah! Oh! Pooh! Ho. Hi. ويمكننا ان نستدل من ذلك أن كثيراً من الكلمات نشأت بهذه الطريقة . فمثلا كلمة Pooh تأتى من النفخ بالشفتين علامة التحقير .

ومنها نظرية الجؤار والخوار The Moo Moo Theory وقوام هذه النظرية أن اللغة بدأت بتقليد الأصوات الطبيعية . وللتمثيل لتلك النظرية ذكروا كلمة Hiss للدلالة على الصفير والفحيح وكلمة Click للدلالة على دقة الساعة .

والأطفال فى بلاد كثيرة ومنها انجلترا يسمون الكلب Boow-Wow تقليداً لنباحه .

وهناك نظرية العلامة مكس ملر (١) المعروفة بنظرية الطنين أو نظرية دق الأجراس Ding-Dong Theory وهى نظرية تقوم على فرض أن الانسان عنده ملكة الاستنباط ؛ فهو يستنبط تعبيراً صوتياً لكل صوت يحدث فى مخه هزة وقد اختفت تلك الملكة لما تقدم الانسان وأصبح لا حاجة له بها . وكل هذه النظريات صحيحة إلى حد كبير . ولكن إحداها أو جميعها لا تستطيع إقناعنا إقناعا كافيا عند ما نريد أن نعرف أصل لغة الكلام .

وكل ما نعرفه هو أن الانسان حيوان ناطق منذ العصور الأولى ، وأن لغته قد ارتقت واتسعت بمرور الزمن .

كيف نشأت الكتابة

كانت الصور ترسم لتمثل الأشياء التى تصورها ، وكان هذا يسيراً سهلا . فلما أراد الانسان أن يصور الخواطر والأفكار كالفضيلة والتقوى والمرض ، لجأ إلى طريقة رسم مجموعة من الصور تؤدى فى مجموعها معنى الفكرة أو الخاطر . وقد تطورت هذه الصور وظهرت فى أسمى حلها فى مصر القديمة التى خلفت لنا أجمل لغة مصورة وأوفاها . فكانت النحلة مثلا رمزاً لأسرة الملك ، وكذلك رمزاً للجد فى الصناعة . وكانت الحزمة من ورق البردى رمزاً للعلم والمعرفة .

الأبجدية

ثم تتابعت العصور وظهر رجال أذكياء عرفوا ان جميع الكلمات إنما صنعت من مجموعة

---

(١) مكس ملر ١٨٢٣ — ١٩٠٠ ولد ألمانيا ثم تجنس بالجنسية الانجليزية وأصبح من الانجليز العالمين باللغات ثم صار أستاذاً للغات الأوربية الحديثة فى جامعة اكسفورد . ومن مؤلفاته كتاب كتب الشرق المقدسة ، وكتاب تاريخ الآداب السنسكريتية القديمة ، وكتاب علم اللغة .

قليلة — قلة نسبية — من الأصوات فرسموا علامات تدل كل علامة منها على واحد من تلك الأصوات . وكان هذا مولد الأبجدية . والعالم كله مدين بهذا لمصر القديمة .

وكانت هذه العلامات أول أمرها فيها صعوبة وفيها تعقيد ، ثم بسطها المصريون ، وجاء من بعدهم الفينقيون فزادوا الحروف تبسيطاً ، ثم نقلوها إلى الاغريق الذين علموا الرومان تلك الحروف .

نقلت عن الانجليزية — مبارك ابراهيم

من ذكريات أيام الاحتلال فى فرنسا

كيف السبيل إلى وصف سأم هذه الأيام المضنى ! كنا نحس كأن الدم يسرى فى قلوبنا سرياناً بطيئاً ، وكأن الحياة تخمد فينا شيئاً فشيئاً . كان على الذين قدر لهم ألا يجازفوا بحياتهم ويجاهدوا جهاد الأبطال ، أن يواصلوا العيش والثقة والأمل ، وأن يكون النصر النهائى . رائدهم الذى به يحتملون الحياة .

ولن أذكر مما يرد على الفكر من ذكريات تفعم القلب كله سوى ما اتصل بحياة كل يوم ، هذه الحياة التى كنا نحرص عليها بكل ما فينا من قوى ضعيفة محطمة ، كنا نشعر بتحطمها إذا ما استيقظنا فى الصباح على صدى نعال الجند تدوى وهم يضربون الأرض بأقدامهم ضرباً وسمعنا أناشيدهم العسكرية التى كان ينقبض لها القلب ويتأذى ، وشاهدنا من خلف النوافذ فى يأس وأسى أعلامهم السوداء والحمراء البغيضة .

أما عن هذه الجوع المصطفة التى كانت تقف ساعات لا تنقضى أمام حوانيت مغلقة أو فارغة ، أما عن أولئك الصبية الشاردين الذين كانوا يبيعون فى سراديب « المترو » بطاقات الخبز المسروقة وقد ارتسمت على وجوههم المتعبة الناحلة آثار الجوع والحرمان ، فلا أتكلم كما لا أتكلم عن أولئك المساكين الذين أدركهم الهرم ، وأخنى عليهم الدهر الذين كانوا يلتقطون من القمام قشور الخبز اليابس وبقايا الطعام ليلتهموها التهاماً . لا ! لا أريد أن أتحدث عن هذه الصور الأليمة ، وإنما أريد أن أتحدث فقط عن بعض أشياء تتصل بحياتنا العقلية كنا نجد فيها ما يبعث فينا الصبر ويحيى الأمل ويساعدنا على الانتظار .

وأفكر قبل كل شئ فى المعارض المعدة التى كانت تقام لنا لتحدثنا عن ماضينا الجليل . وكنا نرى فى هذه المعارض الفن الفرنسى يتجلى فى أروع آياته ونحن ننقل آثار بعض نوابغ الفن فى القرن السادس عشر وآثار نوابغه فى القرن العشرين . وأفكر فى هذه الحفلات التمثيلية التى كان الباريسيون يحيونها فى قاعات باردة لا دفء فيها ويقبلون عليها أشد الاقبال وكأنهم أشد افتناناً بالمواضيع الجدية الرصينة . ويتبادر إلى ذهنى فى الحال إذا ما فكرت فى هذه الحفلات صور بعض الأبطال وبصفة خاصة صورة « أنتيجون » بطلة قصة الكاتب « جان انوى » Jean Ano ثم « جان دارك » بطلة قصة الكاتب بجى » Peguy وكيف كانتا تلتهبان حماسة وتتحدثان عن البطولة إلى شعب كانوا يبذلون الجهد فى تعليمه أن يزدرى نفسه . ثم أفكر فى صورة جان دارك للكاتب « ڤرموريل Vermorel » وهى عندى أدنى إلى الانسانية ، أراها وهى تلهج وتصيح من أعماق سجنها بحبها للحرية .

ثم أفكر فى هذا الحى اللاتينى الذى فارقته حياة الصخب والعنف والمرح وغدا يسود فيه الهدوء . على أننا كنا ندرك أن خلف جدران الكليات كانت حياة العلم تستمر عنيفة يقبل عليها الشباب فى حماسة بالغة ، فكنا نفكر أن حياة العلم على الأقل لم تنقطع ، وندرك أنه لايمكن أن تنقطع أبداً .

وقد غدت حياة الطلاب من بعد يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٠ شاقة عسيرة مهددة ؛ فقد أغلقت جميع الكليات فى ذاك اليوم وانتشر بين الطلاب هذا الخبر المروع الذى لابس قرار الاغلاق وهو القبض على كل من لا عمل له ونقله عنوة إلى المانيا . ولقد رأينا حينئذ هذه المعجزة تحدث وهى أن كل طالب أمسى وأصبح وله عمل منتظم . فلما رأت السلطات ذلك عمدت تنظم الترحيل إلى ألمانيا . على أن ذلك لم يجد فان الأغلبية الساحقة من الشباب رفضت الرحيل ، ونشأ عن رفضهم حوادث أليمة وأمور معقدة .

أما هذا الخط الفاصل بين المنطقة المحتلة والمنطقة غير المحتلة فلكم أثار فى وجهها عقابا وصعوبات . كنا لانستطيع اجتياز هذا الخط إلامزودين بجواز مرور كانت السلطات الحاكمة تضن بمنحه وتقتر فى عطائه حتى فى الظروف الاستثنائية . وأنا أعرف صديقة لى كانت ترغب فى إتمام البحوث الخاصة برسالتها وكان عليها أن تجتاز هذا الخط المنكود حتى يتاح لها ذلك . ولما يئست من الحصول على جوازها حاولت أن تجتازه خفية فقبض عليها وقضت ثمانية أيام فى السجن وهى لا تدرى ما كتب لها ، ولم تنجح فى إنقاذ مذكراتها من الاحتراق إلا بفضل تدخل بعض الشخصيات البارزة فى المنطقة التى قبض عليها فيها . ولكن ما كان أكبر سرورها لما أتيح لها أن تقرأ فى وعاء للمربى عنوان المرشد الذى كان عليه أن يدلها على الطريق الذى تسلكه لتعبر الخط الفاصل وذلك تحت أعين حراسها أنفسهم . وقد استطاعت صديقتى أن تتم تحرير رسالتها ، ومناقشتها أمام أساتذتها ، وأحدهم مؤرخ قدير قبض عليه بعد ذلك مع عدد من إخوانه أساتذة المعهد وأودعوا السجن بضعة أيام .

على أن الذكريات تتوالى إذا ما فكرت فى هذه الدار القديمة الموقرة الكائنة فى شارع رشيليو ، وأعنى « دار الكتب الوطنية » فانها لم تغلق أبوابها قط ولم ينقطع الطلاب والأساتذة والباحثون عن التردد عليها . وقد سمح لهم بالجلوس فقط فى قاعه المطبوعات الفسيحة التى كانت تشبه بفناء محطة السكة الحديدية أو فى قاعة المحفوظات المستطيلة ذات الجدران المكسوة بأخشاب أنيقة الصنع .

وكان البرد شديداً فى هاتين القاعتين . على أن ذلك لم يمنع القراء من الإقبال فى كل صباح على باب المكتبة وانتظار ناقوس الجرس الذى يأذن لهم بالدخول إلى الدار والجلوس فى أماكنهم المعتادة وهم يرتعدون من البرد . ولعلهم كانوا يعودون فى المساء إلى بيوتهم مزكومين إلا أنهم كانوا يعودون وفى نفوسهم هذه الغبطة التى يشعر بها الباحث إذا ما اكتشف المخطوط الذى يلزمه لنشر نص معروف مشتهر ، أو إذا ما قلب فى لذة وحنو صفحات سفر من الأسفار القديمة وعثر على ملاحظات دونها عالم من علماء القرن السادس عشر ، وغير ذلك من ألوان هذه الغبطة العقلية التى يجدها طلاب العلم والباحثون .

كان عدد المترددين على الدار كبيراً متنوعاً ، فيهم الطلاب وفيهم الأساتذة وفيهم الصحفيون والعلماء والباحثون وكل من أحب الكتب وطاب له أريجها . وهم وإن كانوا يتحملون فى غير تذمر شدة البرد ، فقد كانوا يظهرون بعض الضيق إذا ما رأوا طلبهم لاستعارة بعض مجموعات

بالذات مرفوضاً . كانت بعض الأنوار الكهربائية معطلة ولم يكن فى الامكان الحصول على هذه المجموعات فى الظلام ، على أن بعضهم لم يكن يفهم ذلك . ولقد عرض أحدهم فى تهكم ثقابه للبحث عن كتابه وهو لا يعي أن البحث عن كتاب قد يتطلب أحياناً زمناً طويلا لا ينفع فيه ثقابه . بل لقد حدث يوماً أن أحد القراء أحضر معه إلى الدار مصباحا ضخما وألزم أحدنا بالبحث له عن كتابه واستحضاره .

وكان موظفو الدار يعملون دون أن يخلعوا معاطفهم أو قفازاتهم أو كوفياتهم ، بل كان بعضهم وهو أصلع يحتفظ بقبعته دون مبالاة بالتقاليد . أما الذين كانوا يعملون فى القاعات التى لا يصرح بالدخول فيها للجمهور فقد كانوا يلتفون فى أغطية من الصوف . كنا جميعاً نرتعد من البرد ، ومع ذلك كنا نعمل وكأننا لانبالى بالبرد . وحدث أن انقطعت التدفئة عن جميع القاعات ولم يتبق إلا قاعة واحدة فى الدور الأسفل كان بها جهاز صغير يحج إليه موظفو المكتبة كل بدوره ليتدفأ بحرارته ويدخر منها ما يعينه على مجابهة شدة برد الأدوار العليا .

أما صلتنا بالقراء فقد تعقدت بعض التعقد . كان البعض ظريفا لم تؤثر فى مزاجه مؤثرات الحرب . ولقد عرض على أحدهم وعاء مليئا بعسل مقطوف من خلايا نحله الخاص إذ كنت قد قمت ببعض البحوث له . وكان البعض متوتر الأعصاب لا يستطيع صبراً ، كان لا يدرك أن انقطاع التيار الكهربائى عن الدار أو على الأقل تخفيفه كان لا يعيننا على الاسراع . وأن جميع المصاعد والآلات الرافعة عاطلة لا تعمل . وأن رجالنا لم يكونوا جميعاً خفافا أصحاء .

واقتضى منا الكشف الذى ذكرت فيه الكتب التى حرمت السلطات تداولها بذل صنوف من الكياسة والسياسة لاقناع القراء بعجزنا عن إرضائهم ، ولم يكن من اليسير علينا إفهامهم كل ما فى هذا الكشف اللعين من خبث .

وكانت مهمتنا تزداد صعوبة فى خلال إنذارات الخطر ؛ إذ كان القراء ملزمين بترك القاعات للتوجه إلى المخابىء ، فكان بعضهم لا يفارق مقعده إلا بعد إلحاح شديد ، وكان بعضهم يبغى فى سذاجة حمل الكتب معه ليقرأ فى خلال مابين الانذارين . وأخيراً كان يلتقى الجميع فى المخبأ حيث كانت تدور مناقشات فلسفية وتاريخية يختمها صفير الانذار المزعج .

واستمرت الدار تعمل كما كانت تعمل فى الماضى ، رغم ظروف لا تؤاتيها ، ورغم تعذر وجود الأيدى العاملة ونقص الورق ؛ فقد واصلت الدأب على إصدار « فهارسها » وإقامة معارضها دالة بذلك على أن الحرب لم تصرفها عن مهمتها العلمية والثقافية . واستطاع الناس أن يشاهدوا تطور فن الطباعة الفرنسى ويعجبوا بتقدمه ، وبصفة خاصة تقدم الطبعات الخاصة المترفة ؛ إذ كان الحجم الكبير الذى كانت تصدر به هذه الطبعات يسمح بجرأة موفقة فى أساليب الطبع والاصدار . فكنت تستطيع أن ترى الصورة التى تشغل صفحة كاملة من الكتاب ممهورة بتوقيع أكبر الحفارين المعاصرين ، كما كنت تستطيع أن تعجب بجمال الورق ونعومته وأناقته .

وكنا قد اضطررنا إلى إخراج الأسفار والمخطوطات النادرة من الدار لوضعها فى مخبأ أمين ، وكان بودنا لو استطعنا أن ننقذها كلها ، على أنه كان علينا أن نختار من بينها أقومها . فشمل اختيارنا الأسفار التى يرجع عهدها إلى نشأة فن الطباعة ، كما شمل أسفاراً من القرن

السادس عشر فريدة فى نوعها ، وبعض طبعات مصورة من القرن الثامن عشر كانت من مكتبة مارى أنتوانيت الخاصة .

هذه الكتب التى أمسكتها فى حرص وعناية وخوف أيدى الأمراء او الرهبان كنا ملزمين بتكديسها تكديساً فى أعماق الصناديق بعد أحاطتها بأوراق الجرائد ثم إرسالها وفك رباطها وإيداعها خزائن أمينة . وكنا نتساءل فى قلق على أى حال سوف تعود إلينا .

يا للأسف ! لقد اضطرتنا الحرب أن نفارق أجل ما لدينا من مؤلفات ، ولكنها كانت من جهة أخرى تأتينا بهذه المجموعة الطريفة من الجرائد والمجلات والمنشورات والكتب المطبوعة خلسة وفى خفية عن أعين الاحتلال . وبديهى أن إعارة هذه المجموعة إلى القراء كانت أمراً لا سبيل إليه ، بل على النقيض من ذلك كان واجبنا يحتم علينا أن نخفى عن القراء هذه المجموعة الأدبية الطريفة . فلو أن شرطيا من الذين كانوا يلازمون الدار درى بها وسأل إحدنا عن أمر هذه الوثائق المخبأة فى خزانتها لعجزت عن الرد . وكان الكثيرون منا يعجبون بروح هذه المؤلفات إعجابا شديداً . ولن أنسى أبداً الأثر الذى أحدثته فى نفسى مطالعة «الدفتر الأسود » لموريك الكاتب و « شرف الشعراء » لأراجون الشاعر ، هذا السفر الذى كان الشعر فيه يغلى ويثور . وهكذا استطعنا أن نكون مجموعة فريدة أتاحت لنا فيما بعد على أثر تحرير بلادنا أن نقيم معرضاً عن « فرنسا فى أيام الاحتلال » أقبل عليه الجمهور فى شغف عظيم واهتمام بالغ .

وكانت روح الزمالة والصداقة فى الدار سائدة ، ولعلها كانت من أهم العوامل فى الترفيه عنا وتخفيف الهموم والآلام التى كانت فى صدورنا تضطرب . فكان من أصيب منا فى عزيز — وما أكثر من أصيب فى أثناء هذه الحرب — يجد من الدار العطف والحنو والعزاء . ولم يكن الاختلاف بيننا فى الرأى بالشىء الذى يذكر ، فقد كانت آمالنا جميعاً موجهة إلى شىء واحد نصبو إليه .

وهذا الشعور بالتضامن بيننا أتاح لنا أن نواصل العمل والمجهود ؛ حتى إذا رأينا فرنسا تحرر واجتاحت البلاد بأكملها موجة الفرح الكبرى شعرنا فى شىء من الغبطة بأن مجهودنا لم يذهب عبثاً .

ولقد تحسنت الأحوال عامة على أثر التحرير إلا ان الصعاب كلها لم تذلل . كنا قد واجهنا صعابا أكبر ، فلا عجب أن نتحمل هذه الصعاب التى لن تدوم ، وأن نواصل رسالتنا فى سرور تلك الرسالة التى لم يمنعنا عن أدائها مانع . لقد ألفنا الجهد واستمرأنا الكفاح . وإننى لواثقة كل الثقة بأن هذه الدار القديمة سوف تعرف كيف تحيا بمجهودها حياة جديدة . وهى فى جهودها المتواضعة تساهم بنصيبها مع الوطن الفرنسى كله فى سبيل هذه النهضة الحية المباركة الشاملة التى سوف يفيض ضياؤها كما كان يفيض من قبل .

أرفانا براده

رسالة من لندن

أين تجتمع الأمم المتحدة

« سنترال هول » و « تشرش هاوس » هما المكانان المخصصان الآن فى لندن لاجتماعات هيئة الأمم المتحددة التى افتتحت الفترة الأولى من دور اجتماعها الأول ، فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر الخميس العاشر من شهر يناير لسنة ١٩٤٦ . والمكانان واقعان فى « وستمنستر » على مئتى متر من دار البرلمان العتيد ، يلاصق أحدهما الكنيسة العظمى ، وتفصل أحدهما عن الآخر ساحة يتفرع منها شارع «فكتوريا» الموصل إلى محطة لندن الشهيرة عند أهل « القارة » وسائر الأجانب . وللمكانين على السواء صفة دينية مميزة ، وقد ظل أولهما منذ بنى فى سنة ١٩١٢ مركز « الاصلاحيين الأحرار » من رجال المذهب « البروتستانتى » تعقد فيه اجتماعاتهم وتدور مباحثاتهم وتصدر عنه فتاواهم ودعواتهم . وخصص الثانى لنزول الوافدين منهم من مختلف الديار أثناء تلك الاجتماعات والمباحثات .

ولسنترال هول إلى هذا عند « المجاهدين » منزلة . ففيه كانت تعقد مؤتمرات حزب العمال البريطانى السابقة لتوليه الحكم فى السنة الماضية . وفيه اجتمع مستر تشرشل وهو رئيس للوزارة البريطانية إبان واقعة « العلمين » بزعماء عمال المناجم يناشدهم وطنيتهم ويدعوهم إلى مضاعفة إنتاجهم من الفحم فى ساعة الخطر المداهم حتى لا تقع الكارثة وتتناثر الامبراطورية . وفيه خطب « ديجول» احرار الفرنسيين الأوائل القلائل معلناً كلمته الحافزة : «إن فرنسا قد خسرت الموقعة ولكنها محتفظة بالايمان بالنصر » . ولذلك فقد اعتبر اختياره مكانا للاجتماعات العامة — إلى جانب تخصيص « تشرش هاوس » لاجتماعات اللجان — اختياراً موفقاً ، إذ ترفرف على المجتمعين فيه — وهم رؤساء الوفود وأعضاؤها ومستشاروها وسكرتيروها ورجال الصحافة والاذاعة ، وقد جاءوا إليه من كل فج — روح القدسية والرغبة فى الوئام .

على أن « سنترال هول » لم تبق له فشافته الصوفية الأولى التى تتميز بها بيوت العبادة والدين ، بل أدخلت عليه مظاهر الفخامة وإن كانت قد ظلت فى حدود البساطة ولم تتجاوزها إلى الترف غير المستساغ . فقد غطيت أخشاب أرضه « البلوطية » بالطنافس التى تغور فى وبرها الأقدام ، وغطى بيت الموسيقى الكنسى بالفاخر من « القطيفة » ذات اللون الأزرق الموحد ، تكتنفه ذات اللون الأصفر الموحد أيضاً . وتوسط الأزرق المستطيل رمز « الأمم المتحدة »الذهبى يمثل الكرة الأرضية تربط بين أجزائها الحلقات .

وفى مقدمة المنصة التى يشرف عليها ذلك الرمز محاطاً بذلك الجلال المستند إلى تلك البساطة تقوم منضدة الرياسة من « البلوط » الانجليزى الفاتح ، وإليها ثلاثة مقاعد غطيت بالحرير ، وانفرد أوسطها — وهو مقعد الرئيس — بارتفاع المسند الظهرى ، وفوقها دواة كبيرة من الفضة وكوب وإبريق من البلور النفيس جىء بها جميعاً من بين كنوز المتاحف .

وعند سفح المنصة وفى وسطه يقوم المنبر مرتفعاً عن الأرض درجتين ، وإلى جانبيه ملتصقة بالسفح منضدتان صغيرتان للمترجمين ، إلى الانجليزية وإلى الفرنسية ، خلفهما مناضد متباينة الحجم ، مخصصة للسكرتيرين والمعاونين .

ثم صفت خلال القاعة الكبرى مناضد مختلف الوفود ، موزعة على ثلاثة أروقة ، كل رواق ستة صفوف روعى فى الجلوس إليها نظام الحروف الهجائية . وقد شاءت الوتيرة التى سار عليها المنظمون أن تتجاور الثلاث الدول العظمى ، وأن تتقارب العربية السعودية وسوريا ، وأن يتلاصق لبنان والعراق ، وأن تتوسط مصر القاعة كلها إذ كانت فى الصف الرابع من رواق الوسط .

ولكل وفد نوعان من المقاعد : أمامية يستند الجالسون عليها إلى المناضد ، وقد خصصت للرؤساء والأعضاء ، وخلفية يجلس إليها المستشارون . وصفت إلى جانبى القاعة مقاعد خصصت للسكرتيرين والملحقين .

وفى الطابق الأعلى مدرجات ثلاثة : وسط ويمين وشمال ، الوسط أكبرها وقد خصص للصحفيين ، وهو يسع خمسمائة مقعد مرقوم ، إذ لكل صحفى على بطاقته رقم مقعده المعلوم . كما خصص اليمين إلى مدعوى وزارة الخارجية البريتانية من رجال السلك السياسى والشخصيات الممتازة . وخصص الشمال للجمهور الذى وقف ينتظر دوره قبل الافتتاح بخمس عشرة ساعة .

وإلى أعلى مدرج الشمال أقيمت تسع قاعات زجاجية صغيرة جهزت بأدوات الاذاعة ، وخصصت لشركات الاذاعة العالمية ومصالحها كى يحتلها ممثلو هذه المصالح والشركات ، ويذيعوا منها أنباء ما يجرى فى الاجتماع خلال أرجاء العالم جميعاً . وفوق المداخل الرئيسية لمدارج الطابق الأعلى وضعت « كشافات » تسلط منها الأنوار على منصات الرياسة والوفود . وفى هذا الطابق أيضاً خصصت غرف لتسجيل الاذاعات ، وخصصت مقاصير للتليفون متصلة أسلاكها بشركات الانباء اتصالا مباشراً دون مرور على « سنترال » ودون إدارة لأرقام . وفيه كذلك أعد مكان للاسعاف .

وفى الدور الأرضى غرفة كبيرة للتحرير زودت بنحو ستين آلة من الآلات الكاتبة ، خصصت لاستعمال الصحفيين ، تقابلها ردهة للبريد والبرق والتليفون تتصل الوفود ويتصل الصحفيون عن طريقها بداخل الحلترا وخارجها على السواء .

وفى « تشرش هاوس » المعد لاجتماع اللجان ، مثل ما فى « سنترال هول » من وسائل التيسير والاتصال . وفيه فوق هذه الوسائل مكتبة عامرة — على قصر المدة التى انقضت على تهيئتها — بالمؤلفات والتقارير ، وفيه مطعم ومقصف .

وقد عهد بالحراسة والمحافظة على النظام فى المكانين لقوة من مشاة البحرية البريتانية .

محمود عزمى

رسالة من باريس

الثقافة الفرنسية فى الخارج

أنشأت مدرسة المعلمين العليا فى باريس سلسلة من المحاضرات تلقى هذا العام حول انتشار الثقافة الفرنسية فى الخارج وعن وسائل استبقائه بل تقويته .

وقد بدأ هذه السلسلة الأستاذ جان توما خريج المدرسة ، وهو يدير الآن مكتب الصلات الثقافية بين فرنسا والعالم الخارجى . وهذا المكتب المهم يتصل فى وقت واحد بوزارة الخارجية ووزارة التربية الوطنية . وقد ألقى هذا الشاب الممتاز محاضرتين فى الحادى عشر والثامن عشر

من ديسمبر سنة ١٩٤٥ . وكان إلقاؤهما فى قاعة المحاضرات بالبناء الجديد وهى التى تسمى قاعة دوسان ، وشهدها عدد قليل من المستمعين أكثرهم من طلاب المدرسة ، يتقدمهم مديرها الأستاذ بوفيليه وسكرتيرها العام الأستاذ بايون ؛ وقد قدم المدير المحاضر بكلمة موجزة . وسيتعاقب بعد الأستاذ توما جماعة من الاخصائيين يتناولون بعض النواحى لهذه المسألة المتشعبة ، ولا سيما الصلات الثقافية بين فرنسا والبلاد الانجليزية السكسونية وبينها وبين البلاد الاسلامية . وسنلخصها للقراء بعد إلقائها .

وكانت المحاضرة الأولى متصلة بالموضوع من نواحيه العامة على حين كانت الثانية فنية كما سنرى . وقد بدأ المحاضر بالاشارة إلى خطورة الموضوع الذى سيتناوله ؛ فقد عنى مؤتمر سان فرنسسكو بالتنظيم الدولى للثقافة ، ولكن المشكلة أشد خطورة من ذلك بالقياس إلى فرنسا فقد احتلها العدو خمس سنين من جهة ، وكان انتشار ثقافتها من جهة أخرى أملا لها لم تقصر قط فى استحضاره . وهى بعد ذلك ترى قوتها العسكرية والاقتصادية منقوصة إلى حين فلا يبقى لها إلا سلطانها العقلى . والفرنسيون جميعاً يتفقون على هذا المقدار .

ثم عمد المحاضر بعد هذه المقدمة إلى موضوعه الأساسى فقسمه إلى قسمين : أولهما يتصل بالمصاعب التى تواجه فرنسا فى واجبها الثقافى ومهمتها الجامعية . ولهذه المصاعب مصادر أربعة . أولها هزيمة يونيو سنة ١٩٤٠ ومن الأدلة الخطيرة على تأثير هذه الهزيمة فى الثقافة الفرنسية فى الخارج أن عدد الطلاب المنتسبين إلى أقسام اللغة الفرنسية فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية قد بلغ النقص فيه من ثمانين إلى خمسة وثمانين فى المئة . وتعليل هذه الظاهرة يلتمس فى الذهول الذى أصاب الأمريكيين حين انتهى إليهم نبأ الهزيمة ، وفى الغيظ الذى أصابهم من ذلك وقتاً ما . ولكن أهم سبب لهذا النقص يرجع إلى تفكير الطلاب فى مستقبلهم . فالذين كانوا يريدون أن يكرنوا أساتذة للغة الفرنسية قد قدروا أن فرنسا ستصبح دولة صغيرة وسيعرض الناس عن تعلم لغتها ؛ فلا معنى لاضاعة المستقبل فى الاستعداد لتعليم هذه اللغة . ولذلك انحرفوا عنها إلى اللغة الأسبانية التى ورثت فى ذلك الوقت مركز اللغة الفرنسية ولا سيما وقد ظهر الميل إلى التقرب من دول أمريكا الجنوبية . ولا شك فى أن الأمر قد تغير منذ ذلك الوقت ، فرجع الأمريكيون إلى اللغة الفرنسية . ولكننا نخطىء إن ظننا أنها استردت مركزها القديم . وإذا كانت اللغة والآداب الفرنسية تدرس وتفسر فى الجامعات الأمريكية كجامعة ييل وكولومبيا وهارفرد فانها تتقهقر فى الكليات والجامعات فى الولايات الجنوبية . وشىء آخر ليس أقل من هذا خطراً ، وهو أن المؤتمر الذى انعقد فى لندن سنة ١٩٤٣ لاختيار لغة دولية قد شهد على خلاف المألوف بلاداً كهولاندا والنرويج تقترح أن تكون الانجليزية لا الفرنسية هى اللغة الدولية . وقد كان الجهاد عنيفا ليعترف للغة الفرنسية بأنها لغة دولية رسمية كالانجليزية .

وكانت الأحداث السورية من آثار الهزيمة أيضاً ؛ فلم يكن من شأن هذه الأحداث أن تقوى مركز اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية فى الشرق الأدنى ، فلم يضطرب المركز الفرنسى فى هذه البلاد قط ، كما هو مضطرب الآن . إذ لم تبق فرنسا كما كانت من قبل صاحبة المركز الثقافى الممتاز ، وإنما تشاركها فى ذلك على قدم المساواة انجلترا وأمريكا وروسيا من الناحية النظرية على الأقل !

المصدر الثانى انقطاع الصلة المادية بين فرنسا وغيرها من البلاد خمس سنين ؛ فقد نشأ عن

ذلك أن الطلاب لم يستطيعوا أن يأتوا لمواصلة الدراسة كما تعودوا أن يفعلوا حين كانوا يأتون إلى باريس وعواصم الأقاليم . وقد طال هذا الانقطاع ، وأصبح من الحق علينا أن نرغبهم فى الرجوع إلى جامعاتنا . وليس هذا بالشىء اليسير لأسباب كثيرة ، منها النقص فى وسائل المواصلات السريعة المريحة ، ومنها المصاعب المادية المختلفة بالقياس إلى شباب لم يتعودوا الحرمان ، ومنها أزمة المساكن وندرة المنتجات التى يحتاج إليها فى كل يوم ، وقسوة الجو وغير ذلك .

وقد تحدث إلينا الأستاذ توما عما وقع فى نفوس بعض الطلاب والطالبات من خيبة الأمل فقد أسرعوا إلى فرنسا متحمسين، فلم يكادوا يرون هذه المصاعب حتى انطفأت حماستهم . فقد كان الطلاب المصريون بنوع خاص أشدهم تبرما ، ولعلهم لم يستقبلوا كما كان ينبغى أن يستقبلوا .

المصدر الثالث فقدان الكتاب الفرنسى فى البلاد الأجنبية . وهذه الظاهرة من أشد الظواهر خطراً على ثقافتنا ، وهى ما زالت باقية إلى الآن ، يشكو منها الملحقون الثقافيون جميعاً . فالمجلات الفرنسية مثلا لا تتجاوز الحدود إلا بمقدار . فليست هناك سفن ولا طائرات تستطيع نقلها ، وليس أصحابها حراصاً على إرسالها ، وليس فى فرنسا كثير من الورق لطبع الكتب والمجلات . ومع ذلك فقد بذلت خارج فرنسا جهود مدهشة . فقد كان كثير من الفرنسيين متفرقين فى أقطار الأرض فأنشأوا المجلات ونشروا الكتب ونظموا هذا النشر فى كندا والولايات المتحدة والمكسيك والبرازيل والأرجنتين ومصر ولبنان ، بل فى بريطانيا العظمى نفسها ، وكان هذا عملا رائعا .

وبين هذه المجلات يجب أن نسمى اثنتين على الأقل : إحداها المجلة التى أصدرها روجيه كايوا فى عاصمة الأرجنتين وهى الآداب الفرنسية *Les Lettres Françaises* والثانية المجلة التى أصدرها رينيه اتيانبل فى الأسكندرية وهى « قيم » *Valeurs* .

المصدر الرابع المنافسة الدولية الثقافة . وهذه المنافسة قد أصبحت الآن منظمة تنظيما حسناً . وقد كان الألمانيون وحدهم قبل الحرب ينافسوننا منافسة جدية . أما الآن فقد أخذ الانجليز دون نية سيئة من غير شك يعنون عناية شديدة بالاعلان . وربما كانت هذه الكلمة بغيضة ، فلنقل إنهم يعنون بنشر الثقافة الانجليزية . فهم قد أدركوا خطورة هذا النشر . ويكفى أن نذكر المجلس البريطانى وما بث من المعاهد فى أقطار الارض ، وقد أنشأ بعضها أخيراً فى مدينة براج . وهم أكثر منا مالا ، وهم يستطيعون أن يستعينوا بحلفائهم الامريكيين الذين يشاركونهم فى حب الألعاب الرياضية والأندية والمعاهد .

فالى جانب هذا التنظم القوى يتضاءل ما تبذله جماعة الاليانس فرانسيز من الجهود . وقد ظهرت النتيجة مسرعة ، وأخذ ينتشر فى إيطاليا مثلا ميل إلى تكلم الانجليزية . ولا ينبغى أن نهمل المنافسة الروسية وهى تظهر بنوع خاص فى البلاد السلافية حيث أظهر الاحصاء أن الطلاب الذين يتحولون إلى اللغة الروسية ، قد تضاعفوا عشرين ضعفا منذ أعوام قليلة .

وعلى الجملة فان الهزيمة الفرنسية وصعوبة المواصلات ونقص الكتب والمجلات والمنافسة الاجنبية المتزايدة ، كل ذلك يجعل موقف ثقافتنا حرجا وانتشارها عسيراً أشد عسراً مما يظن المتفائلون .

وبعد أن بين الأستاذ توما هذه المصاعب التى تواجه الثقافة الفرنسية عمد فى القسم الثانى إلى بيان أنواع التيسير التى يمكن أن تظفر بها هذه الثقافة ، إن صح هذا التعبير .

فأمام فرنسا فرص عظيمة مواتية ، وذلك لسببين :

أولهما أن فرنسا تستفيد من ضعفها بمعنى أنها لا تهدد أحداً ، وذلك يعطف عليها قلوب أكثر الناس . وكذلك تجد أمريكا اللاتينية فى التراث الفرنسى ثقلا توازن به التأثير المرهق للولايات المتحدة التى تغرقها بالبعثات والدعوات . فكثير من الجمهوريات الصغيرة فى أمريكا اللاتينية ، تطلب إلينا الأساتذة ، بل تطلب إلينا أن ننظم شؤون التعليم فيها .

والأمر قريب من ذلك فى الصين ، وفى إيران حيث ينوء السكان بثقل الدول الثلاث العظمى .

السبب الثانى أنه لا سبيل إلى أن ينكر أحد أن النفوذ الفرنسى ما زال قائماً فيما يتصل بالعلوم والفنون والآداب . وقد عيب على فرنسا منهجها فى تعليم العلوم أو بعبارة أدق فى الانتفاع بتعليم العلوم . عيب عليها بعض مجالس الدرس فى الكوليج دى فرنس ، تلك المجالس التى كانت تختلف إليها سيدات رشيقات مغرورات يقصدن إلى الرياء أكثر مما يقصدن إلى العلم . ولكن يكفى أن نتحول عن قاعات الدرس إلى معامل البحث لنرى العلماء الشبان يبحثون فى مشقة وصبر ، وفى هذا وحده ما يرد على هذا النقد . أما الفن فان أوربا وأمريكا تطلبان إلينا فى غير انقطاع معارض لآثار الفنانين الفرنسيين الذين تحتاجان إلى معرفتهم أو إلى رؤية آثارهم . ويقام الآن فى لندرة معرض لآثار بيكاسو وماتيس . ومع الأسف تقوم فى سبيل هذه المعارض مصاعب النقل ومصاعب الحصول على إذن المالكين لهذه الآثار . والأمر كذلك بالقياس إلى الموسيقى . وقد أقامت جماعة الكونسير بالكونسرفاتوار فى لندرة حفلات موسيقية ظفر فيها الموسيقار العظيم شارل مونش بفوز عظيم . وقد لاحظ المحاضر فى خاتمة حديثه أن هذا كله حسن مشجع ، ولكنه لن ينتج ولن يفيد إلا إذا أقيم على أساس صحيح متين من التعاون والتبادل . فلا ينبغى أن نظن أن فرنسا تشرف البلاد الأجنبية حين ترسل إليها ثقافتها . فهذا الظن سخيف ، وقد أساء إلى فرنسا أكثر مما أحسن إليها . وهناك صعوبة تقوم فى سبيل التبادل ، وهى أن الأستاذ مثلا فى فرنسا موظف من موظفى الدولة . فمن العسير فى ظاهر الأمر أن توجد فى فرنسا كراسى يشغلها الأساتذة الأجانب ، وقد يكون عكس ذلك عسيراً أيضاً . ولكن لا بد من أن يبذل جهد فى هذه السبيل ، ويجب أن نصل إلى تحقيق المعادلات بين الدرجات والأجازات والشهادات مهما يكن مصدرها . وهذه المعادلات إلى الآن أدنى إلى أن تكون نظرية منها إلى أن تكون عملية لا نستثنى من ذلك إلا قليلا .

ويختم الأستاذ توما محاضرته بهذه الكلمة التى يرى أنها ستكون مقدمة لمحاضرته الثانية وهى أننا فى حاجة إلى الرجال . وهؤلاء الرجال يجب أن يكونوا شباناً ، والخير أن يكونوا أساتذة . ومن الحق أن ذخيرتنا من الأساتذة أقل من حاجتنا ، فما نكاد نرسل بعضهم إلى الخارج حتى يضطرب الأمر وتشكو المدارس والمعاهد . فاذا لم يمكن أن نرسل سيلا من أساتذتنا فلا أقل من أن نحسن تخير الذين نرسلهم . فان الأستاذ يستطيع أن يحسن كثيراً بسيرته ومسلكه وليس أدل على ذلك من النجاح الذى أحرزه الأستاذ هنرى بير فى الولايات المتحدة الأمريكية . إنه خريج هذه المدرسة . وأنا واثق بأن كثيراً من الذين يستمعون لى الآن سيكونون رسلا للثقافة الفرنسية فى أقطار الأرض .

مؤنس طه حسين